هذه النسخة مخصصة لشركة هائل سعيد أنعم

www.edara.com

خلاصات كتب التربية و التعليم

العدد 120

رئيس التحرير: نسيم الصمادي

editor@edara.com

نوفمبر / تشرين ثاني 2020 - ربيع ثاني 1442

السنة 10 - العدد 11

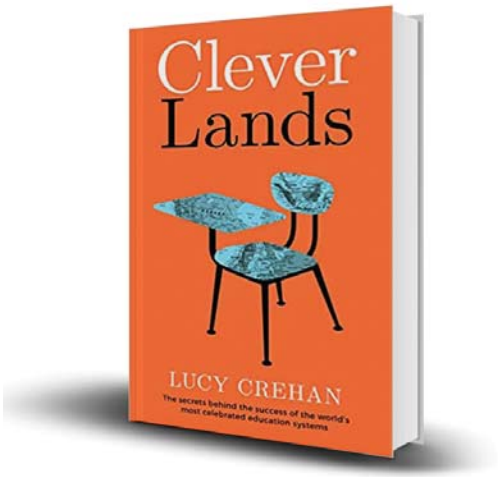

الأمم النابهة

كيف تتفوق الدول الذكية في التربية والتعليم

تأليف: لوسي كراهان

لإلقاء نظرة شاملة وعميقة، نستعرض في ملخَّص هذا الكتاب الصوتي والنصِّي، الممارسات التربوية والتعليميَّة في خمس مناطق هي الأكثر تميُّزاً في مجال التربية والتعليم حول العالم، وهي:

- "شنغهاي" و"سنغافورة" لأنَّهما تحققان نتائج استثنائيَّة في اختبارات (PISA).
- "اليابان" لأنَّها دولة كبرى وغنيَّة ومتميِّزة في التعليم.
- "فنلندا" لأنَّها من الدول الأوروبية القليلة التي استطاعت التفوُّق على دول شرق آسيا.
- "كندا" لأنَّها تحتلُّ مراتب متقدِّمة في اختبارات التقييم رغم تنوُّعها الثقافي وامتدادها الجغرافي.

التنافس العالمي في التعليم

يأتي الاهتمام بمسابقات طلاب المدارس العالمية لمعرفة واستيعاب الممارسات التعليميَّة للبلدان المتفوقة في مجال التعليم. فتهتم وسائلُ الإعلام العالمية بالكثير من المنافسات كل بضع سنوات، وتخرج بمانشيتات كبيرة وهي تشيد بالتجربة الفنلندية، أو أسباب تفوُّق سنغافورة، أو لماذا تراجعت أستراليا. وكل هذا بسبب اختبار معياري عالمي اسمه "البرنامج الدولي لتقييم الطلاب" PISA، واسمه الكامل: Program for International Student Assessment، والذي يشمل تقييم أداء الطلاب في موضوعات: القراءة،

والرياضيَّات، والعلوم. تختار كل دولة من الدول المشاركة في البرنامج أفضل طلابها ممَّن تتراوح أعمارهم بين 14 و16 عاماً لإعدادهم وتأهيلهم للمنافسة. نُفِّذ البرنامج لأول مرة عام 2000 وشاركت فيه 43 دولة. وعلى مدار الخمسة عشر عاماً التالية، انضمَّ المزيد من الدول للمنافسة التي تتم تحت إشراف "منظَّمة التعاون الاقتصادي والتنمية" التابعة للأمم المتحدة. فهل يجب أن نهتم ونشارك في منافسات هذا البرنامج؟

نظراً إلى النقد الموجَّه لاختبارات البرنامج المُتهم بإهمال معايير عديدة لا بد من قياسها مثل: تقييم الطلاب في مجالات الآداب والفنون، وترسيخ مفهوم المواطنة لديهم، وتطوير قدراتهم الشخصيَّة والاجتماعيَّة، فقد سافرت مؤلفة الكتاب، وكانت باحثة في جامعة "كامبردج" البريطانية، حول العالم لتراقب الطلاب في مدارسهم، ونستمع إلى معلِّميهم، وتبحثَ عن الأفكار المُبدعة، لتخرج بصورة أكثر شمولاً، وتضع خططاً واستراتيجيات للتنسيق بين كل تلك العناصر، بالإضافة إلى فهم المؤشِّرات والربط بين الأرقام وتحليلها، وتكوين نظرية جديدة حول ما تعنيه التربية الحديثة والذكية في هذا العصر.

أولاً: التجربة الفنلندية

شهد عام 1963 ميلاد منظومة تعليميَّة جديدة في "فنلندا"، فقد اعتمدت استراتيجيَّة تلك الدولة الاسكندنافية الصغيرة لتحقيق التميُّز في التعليم على نظام تعليمي ومدرسي شامل، ألغى تقييم الطلاب وتوزيعهم خلال مرحلة التعليم الأساسي والمشترك. وقد حلَّت هذه الاستراتيجيَّة مكان النظام ذي المستويين الذي يقسِّم الطلاب إلى تخصُّصات ومدارس مختلفة في سن العاشرة. قامت الحكومة الفنلندية بتوزيع المدارس ليحظى كل التلاميذ بمدارس قريبة من منازلهم، على أن توفِّر لهم الحكومة وسائل مواصلات مجَّانيَّة في المناطق الريفيَّة والبعيدة، وقد وفَّرت المدارس الشاملة مناهج متوازنة للجميع من دون تمييز في الاعتبارات المادية والطبقة الاجتماعية أو المستوى الدراسي.

بعد أن يُنهي الطلاب مرحلة التعليم الأساسي خلال تسعة أعوام في المدارس الأولى، وتسمى المدارس الشاملة، يصبح من حق كلٍّ منهم حين يبلغ 16 عاماً أن يختار مواصلة تعليمه الثانوي عبر أحد المسارين الأكاديمي أو الفنِّي، ومدة كل منهما ثلاثة أعوام تؤهِّل الطالب للالتحاق بالتعليم الجامعي. وقد تم بهذا إلغاء النظام القديم الذي كان يوزِّع الطلاب بين مدارس متميِّزة للمتفوِّقين، ومدارس أقل حظاً تجبر الطلاب على المسار المهني، من دون مراعاة حقِّهم في تغيير المسار إن أرادوا. يرى الفنلنديون أنَّه ليس عدلاً ولا منطقياً إجبار الطالب على الاختيار وهو في سن العاشرة، ثم حرمانه من الحق في تعديل قراره إن أراد ذلك فيما بعد.

تم تنفيذ سياسات التجربة الفنلندية في التعليم من دون تسرُّع، فقد تزامن التغيير مع انخراط مئات المعلِّمين في عمليَّة اكتشاف المنهجيَّات التي تؤتي ثمارها في إطار النظام التعليمي الجديد الذي يتلقَّى من خلاله التلاميذ ذوو القدرات والخلفيَّات المختلفة المحتوى التعليمي نفسه، فكيف استطاعت "فنلندا" التفوُّق في منافسات "PISA"؟

التشجيع

وفقاً لبحث أعدَّه كل من "ريتشارد رايان" و"إدوارد ديسي"، فإنَّ العناصر الثلاثة التي تسهم في تحفيز الأفراد هي: الإتقان، والاستقلاليَّة، والعلاقات الوثيقة، وقد ابتكرت "فنلندا" نظاماً فريداً يدعم المتطلَّبات السيكولوجيَّة لتشجيع المعلمين على الإبداع والعطاء اللامتناهي.

1. **الإتقان:** تموِّل الحكومة الفنلنديَّة برنامج ماجستير تربوي مدَّته خمسة أعوام، على أن يلتزم جميع المعلِّمين بإعداد رسالة ماجستير في موضوع تربوي من اختيارهم بشرط أن يعكس أحدث العلوم التربويَّة المستندة إلى أحدث الممارسات التربويَّة العالمية، ثم يخضع كل معلم لاختبار تحديد مستوى في إحدى المدارس المتخصِّصة في تدريب المعلِّمين.

2. **العلاقات الإنسانية:** يحظى المعلِّمون الفنلنديُّون بعلاقات إيجابيَّة فيما بينهم أولاً، وبينهم وبين طلابهم، وبينهم

وبين أفراد المجتمع. ففي المدارس الابتدائيَّة، يلتقي المعلِّمون مرة كل أسبوع للتخطيط المشترك لكل أسبوع دراسي. وليس بين المعلمين مناصب شرفية ولا هياكل تنظيمية باستثناء سُلطة مدير المدرسة، ويُعامل جميع المدرِّسين ذات المادة العلميَّة الواحدة على قدم المساواة مهنيّاً. كما لا تُحدَّد رواتبهم استناداً إلى مستويات أدائهم، الأمر الذي قد يدفعهم للتنافس بعضهم مع بعض، فعلاقات المعلِّمين لا تدعم حوافزهم فحسب، بل تزيد فاعليَّتهم أيضاً.

3. **الاستقلاليَّة:** ينعم المعلِّمون في فنلندا بالاستقلاليَّة التامة لأنَّهم يحدِّدون الكيفيَّة التي يدرِّسون بها موضوعاتهم، كما يتمتَّعون بالكثير من الحرية بشأن المحتوى الذي يدرِّسونه، فجميع المعلّمين يكونون محل ثقة الإدارة وواضعي السياسات التعليمية أيضاً، فهم نادراً ما يخضعون لعمليَّات تقييم تربويَّة، وليس هناك من يراقب أداءهم وسلوكيَّاتهم، فالمناهج التربويّة الدقيقة والمتماثلة، وبرامج التدريس التي نراها في فنلندا لا تعود إلى فرض أساليب التدريس عليهم، بل هي نتاج الرقابة على جودة العملية التعليمية برمّتها.

ضبط الجودة

بات واضحاً أن فنلندا دولة تثق بمعلِّميها إلى الحدِّ الذي يجعلها تبدو وكأنَّها تستطيع التحكُّم في نواياهم وخبرتهم. فلديها العدد الكافي من الخريجين والشغوفين الذين يتقدَّمون لشغل وظائف المعلِّمين، ولكن لا يتم قبول سوى المحفّزين والشغوفين بتعليم الصغار. فهناك عدد كبير من الأشخاص الذين يتقدَّمون لشغل وظائف التدريس، لأنَّهم يدركون أنَّهم محل ثقة الإدارة التعليمية والمجتمع. تدير فنلندا أيضاً برامج تدريبيَّة في أعرق الجامعات، ما يمكِّنها من التحكم في جودة تلك البرامج وفي مهارات خرِّيجيها، ولأنَّ برامج التدريب التربويَّة تُنسَّق على المستوى المحلِّي، فإنَّ مخرجاتها تكون متشابهة، لا سيما في أساليب التدريس التي ينتهجها المعلِّمون. فعندما تؤكِّد التجارب أنَّ هناك طريقة محدَّدة لتدريس مفهوم بعينه بشكل جديد يساعد الطلَّاب على فهمه بشكل أفضل، فإنَّ المعلِّمين يسترشدون بتلك الأبحاث لاختيار أساليب التدريس الأكثر فاعلية.

وهناك سمة ثانية لمنظومة التعليم في فنلندا تسهم في ارتفاع مستوى النتائج، وهي استخدام الكتب الدراسيَّة ذات الجودة الفائقة. إذ يستخدم المعلِّمون تلك الكتب كمرجع يعتمدون عليه في تحضير دروس الرياضيَّات والعلوم. في حين أنَّ هذه الكتب وأنشطتها المقترحة تستند في تصميمها إلى دراسات تحدِّد أفضل السُّبل لمساعدة الطلاب على تعلُّم المهارات المنشودة. وما يميِّز فنلندا في هذا الجانب هو أنَّها لا تستخدم نظام الامتحانات الموحَّدة قبل أن يبلغ الطلَّاب 18 عاماً. ولذا فإنَّ معظم المؤسَّسات المسؤولة عن إعداد الكتب المدرسيَّة تتنافس حول مساعدة الطلَّاب على الاندماج والمشاركة والفهم العميق للمناهج، مقارنةً بالوضع في المملكة المتحدة مثلاً. في فنلندا، حثَّت الحكومة المؤسَّسات على التنافس والإبداع في إعداد وتحسين الكتب المدرسيَّة، والتأكد من صلاحية كلٍّ منها على تحصيل الطلاب لأعلى الدرجات في كل مادة.

العلم في الصغر كالنقش على الحجر

لا يذهب التلاميذ في فنلندا إلى المدارس قبل سن السابعة. وقبل ذلك، يذهب الأطفال إلى الحضانة لعام دراسي واحد، فكيف يستطيع الطالب الفنلندي ذو الخمسة عشر عاماً التفوَّق في اختبارات القراءة والرياضيَّات والعلوم، مع أنَّه كان يلهو ويلعب لسبع سنوات؟

التركيز على اللعب في سنوات الطفولة المبكِّرة هو الاستراتيجيَّة التي اختارتها فنلندا على العكس من معظم الدول. فاستناداً إلى الأبحاث التي تُظهِر فوائد اللعب ودوره في النمو والمعرفة والنضج العاطفي، يساعد العام الدراسي الواحد الذي يقضيه الطفل في الحضانة على تأهيله في القراءة والرياضيَّات، ولكن هذا يحدث من خلال الأنشطة غير المنهجية بدلاً من التدريس المباشر، فعندما يستمتع الأطفال بالقراءة ويمارسونها خارج المدرسة، تتزايد احتمالات إبداعهم مقارنةً بالذين يُكرَهون على القراءة منذ سن الخامسة مثلاً. الحضانات الفنلنديَّة تحبِّب الصغار بالقراءة من خلال قصص الأطفال الخياليَّة والشعر والقوافي. فيتم تشجيع الأطفال على القراءة والكتابة من خلال اللعب والتجريب. أمَّا الأطفال الذين يواجهون صعوبات في القراءة بعد بلوغ السابعة، فيتم فحصهم وتشخيص حالاتهم للوقوف على صعوبات التعلُّم التي يواجهونها وإتاحة الفرصة لأخصائي معتمد بالتدخُّل المبكِّر لعلاج أيَّة مشكلة تواجه أي تلميذ.

ثانياً: اليابان

يُعَّد التعليم في اليابان أهم استراتيجيَّة حكوميَّة، إذ تُدرِّب الحكومة من خلاله المواطنين على المهارات المتنوِّعة التي تحتاجها الدولة الحديثة، لا سيما الانضباط والالتزام. يُدرك خبراء التعليم أنَّ اليابان دولة نظام، وأوَّل ما يتعلمونه في المدرسة هو الالتزام. حين سُئل الآباء عن أفضل وأسوأ سمة لنظام التعليم الياباني أشاروا إلى انخفاض معدَّل الحريَّات في المدارس باعتباره ميزةً وعيباً. في المدارس الابتدائيَّة، لا يرتدي الأطفال زيّاً مُوحَّداً، ومع بداية المرحلة الثانويَّة يضطرُّ الطلَّاب إلى الالتزام بتسريحة شعر محدَّدة، وبزيٍّ موحَّد يحمل علامات مختارة بعناية. يصف بعض الآباء الانتقال إلى المدارس الثانويَّة بأنَّه تجنيد إجباري يشبه الالتحاق بالجيش، حيث يلقَّن الطلَّاب كيف يمشون في حصص التربية الرياضيَّة، ويتم تأديبهم حين يخرجون على الفريق. يرى اليابانيون أنَّ نظام التربية الصارم يساعد الطلَّاب على فهم القوانين والسلوكيَّات المتوقَّعة، فلا يحتاجون إلى تدريبهم كثيراً وإخبارهم بما يجب أن يفعلوه عندما يدخلون الحياة العملية. ومن المُلاحظ أن الطلاب الذين لا يتكيفون مع هذا النظام يقبلون بهذا النمط السلوكي الصارم باعتباره مرحلة إجبارية يجب أن يجتازها كل تلميذ.

مسؤوليَّة الجماعة

الفكرة الأساسيَّة التي اتضحت استناداً إلى الأبحاث والدراسات اليابانية هي أهميَّة التأقلم والالتزام بسلوك الجماعة، ففي يومهم الدراسي الأول، يُقسَّم الأطفال إلى مجموعات صغيرة تضم كلٌّ مجموعة 4 أو 5 أطفال يتعاونون في كل شيء. يجلس الأطفال في مجموعات ويمارسون أنشطتهم المدرسيَّة ويتناولون غداءهم وينظِّفون مدارسهم، وتتم مكافأتهم أو عقابهم معاً كفريق لا كأفراد.

ويستمرُّ تأكيد أهميَّة الجماعة في المرحلة الثانويَّة، فيستمرُّ الطلَّاب بالعمل في مجموعات، غير أنَّ هويَّة الفصل تصبح أهم في هذه المرحلة. يتولَّى الطلَّاب مسؤوليَّة تزيين الفصول، ووضع الملصقات والشعارات التي اتَّفقوا عليها. وتُعزَّز هويَّة الفصل بإجراء المنافسات بين الفصول التي تتنافس على المستوى الأكاديمي والرياضي والفني، ما يعزِّز الإحساس بالانتماء والمسؤوليَّة المشتركة، وهذه هي المسؤوليَّة الجماعيَّة والمجتمعيَّة. ولا يركِّز المعلِّمون على سلوك الأطفال المشاكسين بشكل فردي، فإذا أساء طفل ما السلوك، على طلَّاب فصله أن يصحِّحوا ذلك ويقنعوه بالالتزام، وإلَّا فإنَّهم سيتعرَّضون للعقاب الجماعي.

ذوبان الفرد في الجماعة

لا تقتصر مشكلة الهويَّة والمسؤوليَّة على العقاب فحسب، بل تمتدُّ إلى الخصوصية الفرديَّة والهويَّة الذاتية، فالطلَّاب لا يرغبون في الخروج عن الإطار المرسوم لهم لأنَّهم يدركون أهمية عدم فعل ذلك. يشعر الطلَّاب بمتانة العلاقات بينهم لأنَّهم يواجهون الصعوبات نفسها معاً. كما يشعرون بأنَّهم مقيَّدون، فلا يستطيعون التعبير عن آرائهم، ولا التفكير بشكل مختلف عن أفراد مجموعتهم. فإذا حاول أحدهم أن يكون مختلفاً أو تسبَّب في أيَّة متاعب، يجري التصدِّي له، وإلَّا فإنَّ سلوكيَّاته ستؤثِّر في الجميع وتؤدي إلى الفرقة بين أعضاء الفريق.

يرى أحد أساتذة علم النفس التربوي في جامعة "أوساكا كيويكو" أنَّ التطابق والتشابه في اليابان يعني رفض أي سلوك يختلف عن النمط العام. وبالإضافة إلى منهجيَّة المسؤوليَّة الجماعيَّة التي تطبقها المدارس، فإنَّ الطريقة التي يُقمع بها الطلَّاب تنتج عن ضغوط الأقران. مثل هذه السلوكيَّات موجودة في جميع أنحاء العالم، ولكنَّها تأخذ في اليابان منحىً خاصاً أسفر عن الثقافة الفريدة التي تسود الفصول المدرسية. فقد تبين أنَّ 80٪ من حالات التنمُّر والتصرُّفات الشرسة في المدارس اليابانية هي حالات جماعيَّة، حيث يُمارس الطلَّاب سلوكيَّات التنمُّر ضدَّ طالب واحد إذا ما أساء التصرُّف في نظر المجموع. وإذ تُحاول اليابان تشكيل شخصيَّات أبنائها كي يندمجوا بشكل إيجابي في المجتمع، فإن بعض المدارس اليابانية تبالغ في فعل ذلك من وجهة النظر الغربية!

النجاح للجميع

يحرص نظام التعليم في مرحلة التعليم الأساسية في اليابان على أن يتلقى جميع الطلَّاب القدر نفسه من التعليم، وألَّا

يحصل أي طالب على مزايا استثنائيَّة. ومن ثمَّ، تَعتمد النتائج وما يعقب ذلك من التحاق بالمدارس الثانويَّة على المجهود الذي بذله الطالب. ومن سُبُل تحقيق ذلك نقل المعلِّمين من مدرسة إلى أخرى استناداً إلى درجاتهم، كي لا تنفرد مدرسة واحدة بالمعلِّمين الأكفَاء. ومن هنا نعرف أنه يتم تعيين المعلِّمين من قبل المجلس التعليمي المحلي، وليس من قبل المدرسة، وينتقل كل منهم من مدرسة إلى أخرى كل عامين في البداية، ثم كل أربعة أو خمسة أعوام بعد أن يتمرَّسوا ويكتسبوا خبرات كافية. ورغم أنَّهم يتلقَّون الملاحظات حول أدائهم بشكلٍ متواصل، فإنَّهم لا يطَّلعون على نتائجهم كي لا يعرفوا أسباب نقلهم إلى مدرسة بعينها. فانتقال المعلِّمين من مدرسة إلى أخرى يجعلهم يحافظون على فاعليَّتهم المهنيَّة؛ لأنَّ الطلَّاب يكونون قد تعاملوا مع معلِّمين آخرين، وتشكَّلت لديهم توقُّعات عالية وعلى كل معلِّم أن يحققها. وقد تكون لدى بعض الطلاب مشكلات سلوكيَّة يضطرُّ المعلِّم إلى معالجتها.

وهناك سببٌ آخر أدَّى إلى تعليم الطلاب في بيئات تعليميَّة متشابهة، وهو أنَّه لا يجري تقسيمهم داخل مدارسهم إلى فصول مختلفة وفقاً لقدراتهم – كما في فنلندا. فالفصل الواحد يحتوي على كل القدرات، حيث يفترض نظام التعليم الياباني أنَّ الجميع متساوون فكريّاً، وأنَّ البيئة والسلوكيَّات الفرديَّة يؤدِّيان إلى اختلافات القدرات الأكاديميَّة مع تقدُّم العمر.

ثالثاً: سنغافورة

يعتمد نظام التعليم في سنغافورة على الجدارة ويقوم على تحديد مواهب الأطفال ومنح كلٍّ منهم فرصاً تتوافق مع تلك المواهب. يفترض النظام إمكانية تحديد الموهبة بدقَّة حين يصل الطفل إلى سن العاشرة أو الثانية عشرة. ولهذا يتم توزيع التلاميذ واختيار المدارس المناسبة لكلٍّ منهم في تلك الفترة.

يلتحق الطلّاب بالمدارس في سن السابعة، ليبدؤوا من الصف الأول الابتدائي. وداخل كل مدرسة، تتنوَّع القدرات داخل الفصول الدراسيَّة في هذه السن. غير أنَّ لكل مدرسة ابتدائيَّة مكانة مختلفة عن غيرها. وأولويَّة القبول هي وجود أخ أو أخت يدرسان بها حالياً، ثم أن يكون الأخ أو الأخت أو أحد الأبوين من خريجي تلك المدرسة. يساعد هذا على تماسك المجتمع، كما يطمئن الوالدين اللذين حظيا بتعليم مميَّز بأن ينال أبناؤهما الفرصة نفسها. تكمن أهمية المدرسة في أنَّ للدرجة التي ستحصل عليها في امتحان إتمام المرحلة الابتدائيَّة في عمر الثانية عشرة تأثيرٌ في مسار حياتك لاحقاً؛ إذ يحدِّد الامتحان المدرسة التي ستلتحق بها، والاختبارات التي تستطيع أداءها، والوظيفة التي ستحصل عليها. وحتّى قبل أن يصل الطلَّاب إلى عامهم الثاني عشر، فإنهم يُقسَّمون إلى فصول مختلفة اعتماداً على قدراتهم الدراسية.

تخضع سلبيات تقسيم الطلَّاب على المدارس وفقاً لمستواهم في هذه المرحلة العمريَّة للمناقشة داخل البرلمان السنغافوري. ولدى الحكومة الآن برنامج تجريبي يستطيع من خلاله الطلَّاب الذين عجزوا عن التحصيل الدراسي المتوقَّع منهم، أن يحصلوا على تدريب في المواد التي أحسنوا الأداء في اختباراتها لإتمام المرحلة الابتدائيَّة، بدلاً من أن يتسرَّبوا من المدارس كما كان يحدث في السابق. أجريت هذه التغييرات بعد فهم مخاطر التقسيم المبكِّر للطلَّاب، الذي يعني أن من يتأخَّرون عن أقرانهم، سيفقدون الفرصة لتحقيق طموحاتهم بدراسة التخصصات التي سيختارونها لأنهم متميزون فيها.

تأثير الضغوط الاجتماعية

للآباء في سنغافورة توقُّعات مرتفعة، وكذلك مشاركتهم. فحين يكون لدى الأبوين ما يكفي من المال، فإنَّهم ينفقونه على المزيد من الدروس. ولأنَّ التعليم مجال للمنافسة، فغالباً ما يُستخدم معلِّمون نابهون لتقديم دروس خاصة تساعد الطالب على التفوق، وليس لمجرد النجاح في المواد التي لم يستوعبها.

وعلى العكس من البلدان التي تشكو من تضخُّم درجات طلَّابها، حيث يستطيع الطلاب خلال سنوات الدراسة أن يحصلوا على درجات مرتفعة، نجد في سنغافورة مشكلة عكسية، فالاختبارات تزداد صعوبةً عاماً بعد آخر ويكون على الطلاب والمدارس والآباء مواكبتها. وهذا التفاوت بين المحتوى التعليمي الذي يقدَّم للطلَّاب من جهة ومستوى الاختبارات من جهة أخرى، يُضيف المزيدَ من الضغوط على الآباء للإنفاق على الدروس الخصوصيَّة، ويُضيف المزيدَ من الضغوط النفسيَّة على الطلاب الذين لا يملكون سوى المذاكرة أكثر من أقرانهم، ما يدفع الحكومة إلى رفع مستوى الاختبارات لتمييز الطلَّاب المتفوِّقين، وتفريقهم عن غيرهم.

هذا ورغم أنَّ نظام التعليم في سنغافورة ليس عادلاً تماماً، فإنَّ هذه الدولة الصغيرة تُبلي بلاءً حسناً لأنَّها تجعل طلَّابها يتجاوزون المستويات الأساسيَّة المقبولة في القراءة، والرياضيَّات، والعلوم. وهناك القليل من الطلَّاب الذين يحقِّقون نتائج ضعيفة في الاختبارات المعيارية الدولية. ولذا فإنَّ مدى تفوُّقِك الدراسي مقارنةً بأقرانك في سنغافورة يعتمد على خلفيَّتك. وحتَّى الذين تأتي نتائجهم في ذيل قائمة نتائج الاختبارات، وفقاً لمعايير سنغافورة، يتفوَّقون على نظرائهم في البلدان الأخرى. كما أنَّ من يواجهون صعوبات اجتماعيَّة في سنغافورة، يبقون أفضل حالاً من نظرائهم في البلدان الأخرى. وقد أطلقت "منظَّمة التعاون الاقتصادي والتنمية" على هؤلاء وصف "الطلَّاب المرِنين"، أي الذين يتمتَّعون بقدرة على التكيُّف والأداء في المواقف الصعبة. فكيف يحدث ذلك؟

لا يهتمّ نظام التعليم في سنغافورة بإشكالية دفع الطلاب الذين ينتمون إلى خلفيَّات أقلَّ حظاً إلى الأداء بالكفاءة نفسها لأقرانهم الأفضل حالاً. إلَّا أنَّه بمجرَّد أن يجري تقسيم الطلَّاب على المدارس وفقاً لمستوياتهم، يحرص نظام التعليم على التأكُّد من أنَّ يصل جميع الطلَّاب إلى الحد المقبول من المستوى المطلوب. ورغم أنَّ تقسيم الطلَّاب على المدارس يعتمد على نتائج اختبار أكاديمي، فإنَّ مساراتٍ بعينها تُخصَّص للذين يرسبون في الاختبارات، فيكون رد الفعل التالي هو تدريبهم على مهارات مهنيَّة مُفيدة فعليًّا، وإدراك مواطن قوتهم، بدلاً من الاستمرار في إقحامهم في برامج دراسيَّة لا طائل منها. أدركت حكومة سنغافورة، قبل غيرها من الدول، أنَّ سنغافورة ستكون دولة فقيرة إذا تخرَّج كل أبنائها في المدارس التقليدية، لأن المهارات اليدوية والمهن الفنية لا تقل أهمية.

رابعاً: شنغهاي الصينية

عاش الفيلسوف الصيني "كونفوشيوس" في القرن السادس قبل الميلاد، وكان يؤمن بأنَّ التعلُّم لا يكفي لتمييز شخص عن آخر، ولا يُعتبر مبرِّراً للتمييز ضدِّ الآخرين، لأنه من حق الجميع أن يسعوا إلى المعرفة بغضِّ النظر عن جيناتهم وظروفهم الاجتماعيَّة. ومن ثم فالحياة في ظل ثقافة كهذه تسهم في دعم عقليَّة النموِّ لدى الطفل الصيني. ورغم ذلك فهم يدركون أنَّ هناك اختلافات في القدرات الفطريَّة للأفراد، بيد أنَّهم لا يولُونها القدر نفسه من الأهميَّة، لأنَّهم لا يعتقدون أنَّها تُسهم في تحديد مستوى الأداء بقدر ما يسهم به الجهد المبذول.

المناهج الدراسية في الصين، تجعل الطلَّاب يؤدُّون المهام ذاتها، ورغم أنَّ بعضهم يتقدَّم عن الآخرين، فلا يُمنح أيُّ طالب امتحاناً سهلاً، أو يُطلب منه العمل على مهمَّة منفصلة تحت إشراف المدرس المساعد. قد يشعر بعضهم بصعوبة الأمر، وقد يقدِّم لهم المعلِّمون المساعدة أثناء الحصة الدراسيَّة وبعدها، فقط من أجل بلوغ مستوى زملائهم، وليس ليتميَّزوا عن غيرهم. فهُمْ مطالَبون بتحدِّيات، ويُقدَّم لهم الدعم ليصبحوا قادرين على مواجهتها، ما يدعَم مبدأ أنَّ الجميع يستطيعون الإنجاز إنْ هُم بذلوا الجهد المناسب. كما يستخدم المعلِّمون المدح بشكل مختلف أيضاً، فهُمْ يطلبون من أكثر الطلَّاب اجتهاداً، وليس أكثرهم إنجازاً، أن يقف ليصفِّق لهم الجميع، وهذه منهجية مثالية لتعزيز عقليَّة النموِّ وشجاعة التواصل والحديث لدى الطفل.

وهناك أمرٌ آخر يؤكد على أهمِّية بذل الجهد، وهو الآباء، فالآباء الصينيون يقلِّلون من أهميَّة نجاح أبنائهم لأنَّهم يؤمنون بأنَّ دورهم هو زيادة اجتهاد أبنائهم. فهم يعتقدون أنَّ التركيز على الإنجازات يسفر عن ضعف حافز التعلُّم. وللأسباب نفسها، يركِّز الآباء على إخفاقات أبنائهم. ومع ذلك فالصينيون الصغار لا يعتبرون آباءهم سلبيِّين لأنَّهم يتدخَّلون عند الضرورة لتشجيعهم على التعلُّم من أخطائهم.

الطالب الصيني ومفارقة التعلُّم

دخلنا وشاهدنا العديد من الحالات الدراسيَّة في المدارس الصينيَّة التي يردِّد فيها الطلَّابُ ما يقوله المعلِّم. بينما نعتقد في الغرب أنَّ التلقين أسلوب قديم لا يتيح للطلَّاب استيعاب المعلومات واستخدامها. غير أنَّ الطلَّاب الذين يتعلَّمون بالتلقين يتفوَّقون على الغربيِّين في اختبار PISA القائم على المشكلات والاستخدام الذكي للمعلومات.

يكمن الخطأ في افتراضنا أنَّ الحفظ والتكرار يقودان بالضرورة إلى السطحية، بينما يميز الباحثون بين نوعين من

استراتيجيَّات التعلُّم وهما: التلقين والتكرار. التلقين أسلوب ضحل ومملّ ولا يشمل الفهم والاستيعاب. أمَّا التعليم بالتكرار فيتضمَّن تعميق استيعابنا عبر التكرار المدروس للمعلومات، وبشكل يجعلنا نهتم ونتعلق بما نكرِّره. وعلى العكس من التعليم بالتلقين، يؤدي التعليم بالتكرار إلى الفهم العميق لمحتوى المادة الدراسيَّة. حين يكرِّر الطلَّاب قصائد شعريَّة قديمة، فإنَّنا نفترض أنَّهم بعد أن يحفظوا كمّاً محدَّداً من المحتوى، سيصبحون على دراية بديهيَّة بكل حروف اللغة الصينيَّة، ومعانيها الخفية، ويحدث هذا تلقائياً. كما تنطوي مادة الرياضيَّات على قدر من الحفظ يشمل الجداول الزمنيَّة والحقائق والأرقام، وهذا يعني أنَّهم حين يحلُّون مسألة أكثر تعقيداً تتطلَّب هذه الحقائق، فإنَّ هذا الجزء من المشكلة يُصبحُ في متناولهم بشكل يسهِّل عملية استرجاعه.

الإبداع والتفكير النقدي

قدَّمت الحكومة الصينيَّة عام 2011 منهجاً دراسيَّاً جديداً يؤكِّد أهميَّة دعم التفكير المستقل للطلَّاب. وهناك عدد متزايد من المدارس التي تدعم التفكير الإبداعي لدى طلَّابها عبر مناهج دراسيَّة تشارك المدارس في تصميمها. وتضيف بعض المدارس قدراً من الاستكشاف والتدريب فتشجِّع الطلَّاب على التعبير عن أفكارهم. وما زلنا بانتظار نتائج تجاربهم الجديدة لنرى ما إذا كانت ستثمرُ عن المزيد من الإبداع أم لا.

خامساً: كندا

تضم كندا عشرة أقاليم، وتتكون من أراضٍ واسعة وذات كثافة سكانيَّة منخفضة. كلُّ إقليم كندي مسؤول عن إدارة منظومته التعليميَّة الخاصَّة، ولذا نجد في كندا نظماً متعددة للتعليم، تشارك عشرة منها في منافسات PISA. تستخدم هذه الأقاليم مناهج دراسيَّة متشابهة، وفيها اتِّحادات معلِّمين قويَّة، ويعتمد تدريب المعلِّمين فيها على نموذج موحَّد، وتستخدم طرق قياس وتقييم متشابهة. وفي ظل هذا النظام نجد عدد الطلاب الفاشلين أقلَّ من أقرانهم في أمريكا مثلاً، لا سيَّما في أساسيَّات القراءة، والرياضيَّات، والعلوم. ويلاحظ أيضاً عدم وجود علاقة مباشرة بين المستوى الاجتماعي للعائلة ونتائج اختبار PISA. فما أسباب أداء الطلاب المُتميِّز مقارنةً بأقرانهم في الدول الأخرى؟

يعتقد واضعو السياسات وقادة التعليم أنَّ دورهم يتركَّز في إدماج التلاميذ كي يشعروا بأنَّهم محلُّ تقدير في مدارسهم، وبأنَّهم عنصرٌ مؤثِّر في المجتمع.

لقد وجد الكنديون الحلَّ في منظومة من عدَّة طبقات. تتمثَّل الأولى في العلاقات التي يبنونها في المدارس حين يستمعون للأطفال ويسألونهم عن الهوايات والأعمال والدروس التي يحبُّونها. وتقدِّم المدارس الثانويَّة مجموعة متنوعة من الأنشطة الخارجيَّة كالتنس، والرسوم المتحرِّكة، والمناقشات، وكرة القدم الأمريكية. ومن نتائج هذه الأنشطة أن يقوم الجميع بدورهم في المدرسة، فنجد مستشارين ومرشدين في كل مدرسة. ولا يقتصر دورهم على دعم الطلَّاب من ذوي الاحتياجات الخاصة فحسب، بل يتضمَّن النقاش مع الجميع حول شؤون الساعة، والمواد الدراسيَّة التي يرغبون في اختيارها. يقول أحد التربويين الكنديين: "كل الطلَّاب يستحقُّون التعليم، ولكنَّهم لن يركزوا على مناهجهم ودروسهم من دون أن يشعروا بحبٍّ واهتمام من حولهم". هذه الملاحظة مهمَّة جداً، لأنَّ الذين يشعرون بأنَّ الدراسة الأكاديميَّة صعبة، والذين تتزايد احتمالات إخفاقهم، يكونون بحاجة أكثر إلى سبب يدفعهم إلى الاستمرار في الدراسة، والاجتهاد. ويهتم التعليم الكندي بتشجيعهم على الاندماج والشعور بأنَّهم جزءٌ من مجتمع أكبر، من خلال منظومةٍ سَوِّيةٍ من العلاقات الإنسانيَّة.

وهناك سبب آخر يُسهم في تحفيز الطلَّاب، وهو فكرة كنديَّة لتقسيم الطلَّاب إلى مجموعات، فلا يوجد توزيع على مدارس مختلفة، أو عبر مسارات مختلفة وفق المستوى الدراسي لكل طالب، أو تقسيم على فصول مختلفة، حتَّى يصل الطالب إلى الصفِّ التاسع، ويكون عمره بين 14 و15 عاماً. في تلك المرحلة يبدأ الطالب فصلاً تمهيديَّاً للرياضيَّات المتقدِّمة، فيتوفَّر له الوقت الكافي للوقوف على مواطن قوَّته ومهاراته قبل وضعه في المسار المناسب.

مقاييس الأداء

وضعت مقاطعة كولومبيا الكندية الجنوبيَّة مقاييس مقننة ومنظومة أداء خاصَّة يستخدمها المعلِّمون في الفصول. تركز

تلك المقاييس على شرح ما هو متوقَّع من الطلاب في كل مستوى دراسي. فمثلاً: تتضمَّن معاييرُ الكتابة الخاصَّة بالصفِّ الثالث "الكتابة الأدبيَّة"، أي كتابة القصص والقصائد الشعريَّة. ويوضِّح الجدول التالي بعض مقاييس الوفاء بمعايير هذا النوع من الكتابة الإبداعية:

العناصر	لم تفِ بالتوقُّعات بعد	تفي بالحدِّ الأدنى من التوقُّعات	تفي تماماً بالتوقُّعات	تتجاوز التوقُّعات
لمحة	تكون الكتابة مقتضبة، أو مفكَّكة، أو غير منطقيَّة، ويعيبها تكرار الأخطاء الأساسيَّة	تمثِّل الكتابة أحداثاً وأفكاراً مفكَّكة، مع بعض التفاصيل المشوبة بأخطاء متكرِّرة	الكتابة كاملة، وسهلة الفهم، وتتضمَّن قصَّة أو قصيدة شعر ذات إيقاع سلس وشيِّق	النص المكتوب عبارة عن قصَّة جذَّابة وموحية وتتَّسم بقدر من الأصالة

نجد كل هذه المعايير مشروحة بأمثلة واقعية في كل موضوع ومستوى دراسي. وتختلف الطريقة الكندية التي تعتمد على النتائج عن طرقِ التقييم في غيرها من الدول. فمثلاً نجد معايير سنغافورة لاختبارات المرحلة الابتدائيَّة تقيس أداء الطلَّاب بمقارنة أداء كلٍّ منهم بالآخرين، وليس وفقاً لمعيار ثابت، ما يجعلُ الطالبَ يحصل على درجة مرتفعة إذا كان أداؤه سيئاً، وكان أداء زملائه أسوأ. أمَّا إذا كان أداؤه ممتازاً، وكان أداء زملائه أفضل، فإنَّه يحصل على درجة منخفضة، فالفيصل في تحديد درجاته هو مجموعه مقابل درجات زملائه. أمَّا في كندا فمن الممكن أن يفي طلَّاب الصفِّ الرابع الابتدائي جميعهم بمعايير تلك المقاطعة ويجتازون الامتحانات وينجحون من دون أن يرسب أحد.

العبرة والحكمة

هذا الكتاب ليس وصفة ولا دليلاً إرشادياً لبناء أفضل نظام تعليم في العالم، ومع ذلك فإنَّ معرفة السياسات الناجحة في بعض الدول التي تتمتَّع بمنظومات تعليم متميزة حول العالم، قد تساعد في تحديد واختيار ما يُناسبكم، طبقاً لثقافة مجتمعاتكم، وخططكم، ومدى استعداد طلابكم.

مهما تنوّعَت وتعدَّدت أساليب التعليم وتفاوتت بين الدول، فلا تتجاهل: تنميةَ المواهب، وإلهام الطلاب، وشحذ هممهم وزيادة وعيهم الاجتماعي، وترسيخ قيم المواطنة والعدالة والمساواة وقبول الآخر بينهم، فضلاً عن زرع قيم المحبة والخير والسلام فيهم. معظم طلَّاب العالم يتساوون أو يتقاربون في قدراتهم واستعدادهم؛ وما يصنعُ الفرقَ هو الطلاب أنفسهم، إلى جانب الخبراء والفلاسفة والمعلمين والمديرين الموهوبين أيضاً. وعليه، يُمكننا أيضاً أن نكونَ أمَّةً نابهة، ترعى طلاباً نجباء، يتعلمون على أيدي معلمين أذكياء، في مدارس محترمة تمنحهم الحرية وتسمعهم وتحفزهم لكي يعوا ويستوعبوا متغيرات عالمهم.

الكتـــاب

Title:	CleverLands: The Secrets Behind the Success of the World's Education Superpowers
Authors:	Lucy Crehan
Publisher:	Unbound (April 1, 2017)
ISBN:	978-1783522736
pages:	320

المؤلِّفة :

لوسي كراهان

معلِّمة سابقة ومستشارة تربويَّة. درَّسَت العلوم وعلم النفس في المدارس الثانويَّة، ثم اتجهت إلى ابتكار سياسات التعليم. حاصلة على ماجستير التربية من "جامعة كامبريدج" العريقة.